الاتجاهات الاجتماعية: مقاربة سيكوسوسيولوجية في المفهوم، والبنية، وآليات التغيير

(تندرج هذه المادة التوجيهية والبيداغوجية ضمن توجه أكاديمي يهدف إلى تفكيك المفاهيم الكبرى في العلوم الإنسانية)

Social Attitudes: A Psychosociological Approach to Concept, Structure, and Mechanisms of Change

د. خليد العوني

باحث في علم الاجتماع

وزارة التربية الوطنية، المغرب

https://elaouni.ma/

https://orcid.org/0000-0002-9189-8797

khalid@elaouni.ma

الملخص:

تقدم هذه الورقة مراجعة تركيبية لمبحث *الاتجاهات الاجتماعية* في علم النفس الاجتماعي. نستهل المراجعة بمدخل منهجي يحدد تموقع هذا العلم بين السيكولوجيا والسوسيولوجيا، مبرزين التفاعل الدينامي بين الذات والموضوع، والتمايز المنهجي بين الوصف الخارجي والقياس غير المباشر. وننتقل في هذا النص إلى تفكيك البنية المركبة للاتجاه عبر أبعاده الثلاثية: المعرفية، والوجدانية، والسلوكية، مع رصد وظائفه التكيفية في صياغة وعي الذات ورؤية العالم، ومناقشة تجلياته عبر آليات تذويت المواقف المسبقة كظاهرة "تحقق النبوءة ذاتيا". كما نبحث في هذه المراجعة في محددات قياس الاتجاهات إجرائيا، وتتبع أدوار التنشئة الاجتماعية والبنيوية في إنتاج "الشخصية التسلطية". ونختتم المراجعة بفحص متغيرات الإقناع (المصدر، الرسالة، والمستقبل) وآليات التغيير السلوكي، واقتراح خطة رباعية لإدارة المواجهة العامة وصناعة الرأي.

الكلمات المفتاحية: علم النفس الاجتماعي؛ الاتجاهات الاجتماعية؛ الشخصية التسلطية؛ الإقناع؛ تحقق النبوءة ذاتيا.

Abstract:

This article provides a synthetic review of social attitudes within the field of social psychology. It begins with a methodological introduction that situates this discipline between psychology and sociology, emphasizing the dynamic interaction between subjectivity and objectivity, as well as the methodological distinction between external description and indirect measurement. The text then analyzes the complex structure of attitudes through their three dimensions—cognitive, affective, and behavioral—while highlighting their adaptive functions in shaping self-awareness and worldviews. It also explores how attitudes are expressed through the internalization of stereotypes, particularly in the phenomenon of the self-fulfilling prophecy. In addition, the review discusses the procedural challenges of measuring attitudes and examines the role of social and structural factors in the development of the authoritarian personality. Finally, it considers the variables of persuasion (source, message, and recipient), the mechanisms of behavioral change, and proposes a four-stage framework for managing public encounters and shaping public opinion.

Keywords: Social psychology; Social attitudes; Authoritarian personality; Persuasion; Self-fulfilling prophecy.

مراجعة تركيبية، مؤرشفة في مستودع Zenodo المفتوح بالمعرف الرقمي:

https://doi.org/10.5281/zenodo.20419247

تنويه: هذه الورقة نسخة منقحة ومحدثة لعمل سبق نشره سنة 2013 في مدونة شخصية للكاتب، وقد أعيد تنقيحها وإغناؤها بمستجدات بحثية وبيداغوجية.

مدخل منهجي: في ماهية علم النفس الاجتماعي

يحظى علم النفس الاجتماعي بأهمية بالغة في دراسة السلوك الإنساني؛ لكونه يبحث في المنطقة المشتركة بين علم النفس وعلم الاجتماع. وإن كان فحص *الاتجاهات الاجتماعية* يمثل المبتغى الأساس لهذه المقاربة، فإن مقتضيات الاتساق المنهجي تستلزم تقديم ملمح وجيز عن هذا العلم: مفهومه، واهتماماته، ومناهجه الرئيسة، دون الاستغراق في تشعبات أكاديمية قد تبعدنا عن السياق المركزي للبحث.

مع ذلك، تثير صياغة تعريف دقيق لعلم النفس الاجتماعي نقاشا بين الباحثين، نظرا لخصوصية العلوم الإنسانية التي تتداخل فيها مرجعية الباحث وموقعه مع موضوع الدراسة (جدلية الذات والموضوع). ولتجاوز هذا الإشكال، يمكن تلمس ماهية هذا العلم من خلال رصد الممارسة العلمية لخبير علم النفس الاجتماعي؛ فهو يرفع بصره عن الاهتمامات النفسية البحتة، ليشمل في منظوره المحيط الاجتماعي الذي يؤثر في تفكير الناس، ومشاعرهم، وسلوكهم، وتفاعلاتهم (لامبرت ولامبرت، 1993، ص. 15).

وبهذا المنظور، يغدو الباحث مهتما بالطرق التي تتفاعل من خلالها العمليات النفسية بالمؤثرات الاجتماعية المسؤولة عن تشكيل الشخصية في صورتها النهائية. ولأنه يهتم بالأوضاع البنيوية والثقافية للسلوك اهتمامه بالأفراد، فإنه يعتمد الملاحظة والتجريب مركزا على التفاعل بين الإطار الاجتماعي والفرد، متيحا بذلك وصفا وشرحا دقيقين للتأثيرات النفسية الناتجة عن التفاعل الاجتماعي والعملية الاجتماعية ذاتها (لامبرت ولامبرت، 1993، ص. 15).

يشار أحيانا إلى علم النفس الاجتماعي بوصفه "*علم اجتماع مصغر*" أو "*أنثروبولوجيا مصغرة*". إنه يركز على التفاعلات البينية دون الاستغراق في المشكلات الكبرى لتلك الأنظمة. وقد حقق هذا الفرع نموا متسارعا منذ الحرب العالمية الثانية، ليصبح اليوم من أكثر الفروع حيوية في منظومة العلوم السلوكية (لامبرت ولامبرت، 1993، ص. 17). وبفضل هذا التطور، أضحت الأفكار الساذجة والشائعة في الثقافة العامة — من قبيل "الإنسان محب لذاته أساسا" — موضع تحد ومساءلة علمية تبحث في كيفية تغلغل هذه القواعد في البنية اللغوية، ومدى اعتمادنا عليها في إطلاق الأحكام (لامبرت ولامبرت، 1993، ص. 18).

تتحدد المهمة العلمية لعلماء النفس الاجتماعي في صياغة المبادئ وتطوير تفسيرات شمولية لطبيعة الإنسان الاجتماعية بناء على الحقائق التجريبية (لامبرت ولامبرت، 1993، ص. 20). وفي هذا الإطار، يمكن التمييز بين اتجاهين منهجيين: يقتصر الأول على وصف أفعال الناس الملاحظة في الأطر الاجتماعية، بينما يرى الاتجاه الثاني ضرورة التعامل مع جوانب السلوك المعقدة كالدوافع، والاتجاهات، والقيم، وأساليب الإدراك، وهي متغيرات لا يمكن ملاحظتها مباشرة، بل تقاس بطرق غير مباشرة (لامبرت ولامبرت، 1993، ص. 22). والواقع أن تعقد الظاهرة السيكوسوسيولوجية يفرض تجاوز الثنائيات المنهجية نحو مقاربة شمولية تجمع بين الوصف الخارجي والقياس غير المباشر.

تنبثق أهمية هذا التحديد من واقع المعيش اليومي؛ فالإنسان منذ استيقاظه حتى مبيته، وسواء في فضاء عمله أو داخل منزله، يظل عاجزا عن تحاشي مختلف المؤثرات الاجتماعية التي تحفزه على تبني آراء وأحكام وميول جديدة، أو تدفعه لتعديل مواقف قديمة تجاه الأشخاص والأشياء المحيطة به (إبراهيم، 1985، ص. 229). إن علاقة الفرد بالآخر والعالم الخارجي، والتأثير الممارس عليه عبر آليات الترغيب والترهيب، هو ما يشكل النواة الصلبة لتكوين الاتجاهات وإعادة صياغتها بواسطة مؤسسات التنشئة الاجتماعية والسياسية؛ كالإعلام، والسلطة، والمدرسة، والمؤسسات الدينية. ومن ثم، فإن حضور الذات في العالم يتخذ شكل اتجاهات موجهة للأفعال وردود الأفعال.

I. الدلالة الاجتماعية للاتجاهات وطبيعتها

يبدو أن المنبهات الاجتماعية تفرض وجودها على الفرد بشكل غامر في مختلف مراحل نموه ومواقعه الوظيفية. وحالما تنجح البيئة في تشكيل اتجاهاتنا نحو الأشياء والأشخاص، تتحول تلك الاتجاهات إلى محددات سلوكية تدفع الفرد نحو مواقف متسقة مع محتواها المعرفي والوجداني (إبراهيم، 1985، ص. 230).

يثير هذا التحول إشكالا يتعلق بالسن التي تبدأ فيها الاتجاهات بالتمظهر في السلوك. إذ تظهر الأبحاث التجريبية — كدراسة *مارجريت بركس* حول أطفال تتراوح أعمارهم بين خمس سنوات وثماني عشرة سنة لرصد اتجاهات التحيز والتمييز — أن الأطفال في سن الخامسة لا يبدون أي تحيز، بينما تظهر ملامح التمييز بوضوح لدى 27% منهم بحلول السنة العاشرة، حيث يعمدون إلى استبعاد الأقران بناء على خلفياتهم الهوياتية (لامبرت ولامبرت, 1993، ص. 112). يكشف هذا المؤشر عن قوة تغلغل الأفكار في ضمير الفرد، فالاتجاه يتشكل بفعل السلطة التي تمارسها المؤسسات الاجتماعية، ومع تقدم العمر والتنشئة، يبدو وكأن المرء بات خاضعا لمنظومة ثابتة من التقاليد والمعتقدات الموجهة لأفعاله.

بناء على ما سبق، يمكن تعريف الاتجاه بأنه أسلوب منظم ومتسق في التفكير، والشعور، ورد الفعل تجاه الناس، والجماعات، والقضايا الاجتماعية، أو البيئة بصفة عامة. وتتألف بنية الاتجاه من ثلاثة مكونات رئيسة: الأفكار (المعتقدات)، والمشاعر (الانفعالات)، والنزعات السلوكية (الأفعال). ويتشكل الاتجاه تزامنا مع ترابط هذه المكونات ارتباطا وثيقا بموضوع محدد (لامبرت ولامبرت, 1993، ص. 113).

نجد في المقاربات الكلاسيكية افتراضا مفاده أن الاتجاهات تنشأ من خلال التفاعل مع البيئة الاجتماعية، ورغم مرونتها في البداية، إلا أن تغييرها بمرور الوقت يصبح أمرا صعبا لتحولها إلى استجابات تلقائية وعفوية، بل إننا غالبا لا نعي حجم التأثير الضخم الذي تمارسه على سلوكنا الاجتماعي (لامبرت ولامبرت, 1993، ص. 114). ففي عمق التفاعل الاجتماعي، يتوقف النجاح غالبا على مهارة الفرد في استنتاج اتجاهات الآخرين ومشاعرهم عبر إشارات سلوكية دقيقة، ومن ثم تنظيم تصرفاته وفقا لتلك الاستنتاجات (إبراهيم، 1985، ص. 115).

II. بنية الاتجاهات، وظائفها، وخصائصها

تؤدي الاتجاهات الاجتماعية وظائف محورية تتيح للإنسان التكيف مع محيطه وتشكيل وعيه بذاته وبنائه لرؤية العالم. ويمكن حصر هذه الوظائف في أربعة أبعاد أساسية: التأثير المباشر في أحكامنا وإدراكنا للآخرين، وتحديد سرعة وكفاءة عمليتنا التعلمية، فضلا عن دورها في توجيه الفرد نحو الجماعات التي يرتبط بها والمهن التي يختارها، وصولا إلى صياغة الفلسفة العامة والحياتية التي يتبناها.

تتأسس هذه الوظائف على البناء المركب للاتجاه، والذي يتداخل فيه الوجداني، والمعرفي، والسلوكي:

- **الجانب الوجداني (الشعوري):** يتمثل في مشاعر الإقبال أو الإحجام، الحب أو الكراهية، والنفور أو التأييد نحو موضوع الاتجاه.
- **الجانب المعرفي (الفكري):** يشير إلى مجموع الأفكار، والمعتقدات، والحجج المعرفية التي يتقبلها الشخص ويدمجها في بنيته الذهنية (إبراهيم، 1985، ص. 231).
- **الجانب السلوكي:** يعد من أكثر الجوانب حساسية، لكونه يمثل الانتقال من الكمون النفسي إلى التورط الفعلي في سلوك ظاهر وممارس (إبراهيم، 1985، ص. 233).

يوضح إبراهيم (1985) أن ترجمة الاتجاه إلى ممارسة عملية تملك القدرة — على المدى الطويل — على إعادة تشكيل واقع موضوع الاتجاه نفسه. فإذا أظهرت بيئة اجتماعية ما شكا مستمرا في كفاءة أعضاء أقلية معينة، فإن سلوك أفراد هذه الأقلية سينتهي تدريجيا *إلى تذويت الإحساس بالنقص وعدم الكفاءة* (ص. 233). وتعرف هذه الآلية في علم النفس الاجتماعي بـ "*ظاهرة تحقق النبوءة ذاتيا* (*Self-Fulfilling Prophecy*) "، حيث يتصرف الأفراد بطريقة تتلاءم مع التوقعات والمواقف المسبقة التي فرضها المجتمع عليهم، وهو ما ينطبق على نماذج تاريخية كسلوك الزنوج في أمريكا، أو تمثل المرأة لنفسها بأنها أقل ذكاء أو شأنا من الرجل نتيجة استدماج التوقعات الاجتماعية السائدة. إذ يغدو رفض الذات والتهوين من قيمتها نتاجا طبيعيا للرفض الاجتماعي الممارس من طرف الآخرين (إبراهيم، 1985، ص ص. 234-235).

إن وضع هذه الافتراضات النظرية موضع مساءلة، وإن كانت تدعمها بعض النماذج التاريخية والواقعية، يكشف عن مسلمة ضمنية خطيرة، مفادها أن الأقليات والمهمشين يستدمجون النقص دائما وينصاعون له ذاتيا. وتمثل أطروحة كاستلز في مؤلفه شبكات الغضب والأمل (2017) صوتا مضادا. إذ يُبنى الفضاء العام للحركات الاجتماعية باعتباره فضاء هجينا بين شبكات التواصل الاجتماعي على الإنترنت والحيز الحضري المحتل، ليربط بين الفضاء الإلكتروني والحيز الحضري في تفاعل لا هوادة فيه، مشكلا، تقنيا وثقافيا، مجتمعات آنية للممارسة التحويلية (كاستلز، 2017، ص. 34).

لقد أظهرت السوسيولوجيا الرقمية، من خلال مقاربتها للحركات الاجتماعية في المنطقة العربية، أن الفضاء الرقمي منح للذوات المهمشة مجالا لصياغة اتجاه متمرد ومقاوم؛ وهو اتجاه يمثل، وفقا لتأويلنا، رفضا جذريا لتذويت الإحساس بالنقص ومحاولات استدماج الدونية من طرف الأنظمة المستبدة. فالسعي إلى صياغة هذا الاتجاه البديل وترسيخه في الفضاء الافتراضي يتولد عنه فرز معرفي ووجداني وسلوكي حاسم، يتجاوز حالة الاستلاب السيكولوجي.

وتكشف النظرة الثلاثية في برادايغم *موسكوفيسي* (*Moscovici*, 1984) أن العلاقة الإدراكية والسلوكية بين الفرد (الأنا/Ego) وموضوعات الواقع الإنساني والاجتماعي (الموضوع/Objet) لا تتم بشكل مباشر، بل تمر عبر وسيط تفاعلي دائم وهو الآخر (الغير/Alter)، والذي يشمل بالمعنى الواسع الأفراد، والجماعات، والمجتمعات على حد سواء (Piermattéo et al., 2019, p. 9). تتيح لنا هذه المقاربة الإبستمولوجية فهم ديناميات المواطنة العابرة للحدود. حيث لم يعد تشكيل اتجاهات الفرد وحالاته الفكرية والسلوكية محكوما ببنية محلية مغلقة، بل هو نتاج سيرورة تفاعلية ممتدة يمارس فيها هذا الآخر الوسيط (سواء في مجتمع المنشأ أو الاستقرار) تأثيرا ضمنيا أو متخيلا أو فعليا يعيد صياغة تمثلات الانتماء والهوية في الفضاء العالمي المعاصر.

تكتسي هذه المقولات السيكوسوسيولوجية وظيفة ديداكتيكية بالغة الأهمية في *فضاء الدرس الفلسفي*. إذ يتقاطع فحص بنية الاتجاهات مع محاور كبرى في المقررات التوجيهية والتربوية، وخاصة مجزوءة *الوضع البشري* في شقها المتعلق بـ "*الغير*". فآليات التحيز والتمييز والتمثل المسبق للآخر تشكل مادة خصبة لتفكيك شروط العلاقة مع هذا الغير، والانتقال بها من الصراع والدونية إلى الاعتراف المتبادل. كما أن استيعاب بنية الشخصية التسلطية يمنح الدارس أداة نقدية لمساءلة أبعاد مجزوءة *السياسة*، ولا سيما مظاهر العنف المؤسساتي والدولة، مما يحول المفهوم النفسي إلى أداة لتحفيز التفكير الفلسفي النقدي لدى المتعلم.

III. منهجية قياس الاتجاهات ومحدداتها الإجرائية

تواجه عملية قياس الاتجاهات تعقيدات منهجية مرتبطة بطبيعة الظاهرة النفسية؛ فمن الصعب تحديد درجة ثبات المقياس في ظل التحول المستمر الذي يطبع الأفراد واتجاهاتهم، كما يمتنع إجراء قياس مباشر للعمليات النفسية

المعقدة الكامنة. بناء عليه، تستوجب الاستنتاجات غير المباشرة اختبارا دقيقا لمعايير الصدق والثبات، لضمان أن المقاييس المعتمدة تقيس بالفعل الاتجاه المعني لا عملية نفسية أخرى طارئة (لامبرت ولامبرت، 1993، ص. 116).

ونظرا لكون الملاحظة المباشرة في المواقف الاجتماعية الطبيعية تستغرق وقتا طويلا وجهدا مضاعفا، فقد طور الباحثون إجراءات بديلة تتسم بالفعالية والنجاعة المنهجية. تشمل هذه الأدوات مطالبة المبحوثين بتخيل مواقف اجتماعية محددة وتقديم تقارير ذاتية عن أفكارهم، ومشاعرهم، وأنماط سلوكهم المتوقعة، إلى جانب الاعتماد الواسع على الاستبيانات واستطلاعات الرأي العام.

وحين تُنقل هذه الأدوات الإجرائية إلى حقل الدراسة الميدانية لتشريح التفاعلات الاجتماعية المعقدة، تكشف نتائج هذه القياسات عن ارتباط وثيق بين البنية الطبقية والاتجاهات الاجتماعية؛ فالأوضاع السوسيو-اقتصادية تسهم مباشرة في صياغة الموقف من الآخر. ويظهر ذلك جليا في النموذج الكندي؛ حيث أظهر المواطنون ذوو الأوضاع الاقتصادية المستقرة اتجاها إيجابيا نحو المهاجرين واعتبروا وجودهم قيمة مضافة للأمة، في حين أبدت الفئات المنتمية للطبقة المتوسطة اتجاهات أقل إيجابية وأكثر تشككا، مدفوعة بخوف اجتماعي ناتج عن المنافسة على فرص الشغل والاستفادة من الخدمات العامة (Environics Institute for Survey Research, Future Skills Centre, & Diversity Institute, 2026, pp. 9–10).

وتتخذ هذه الدينامية السيكوسوسيولوجية أبعادا أكثر تعقيدا عند مقاربة ظاهرة الهجرة المعاصرة وبروز المواطنة العابرة للحدود (Transnational Citizenship). فالمهاجر لم يعد فاعلا ينفصل كليا عن مجتمعه الأصلي ليذوب في مجتمع الاستقرار. وتعرف المواطنة العابرة للحدود بوصفها تدل على العملية التي يقوم بها ومن خلالها المهاجرون بتشكيل علاقاتهم الاجتماعية المتعددة والمتشابكة التي تربط مجتمعاتهم الأصلية والمجتمعات المضيفة والمحافظة عليها. وبني العديد من المهاجرين مجالات اجتماعية تتخطى الحدود الجغرافية والثقافية والسياسية (Glick Schiller, Basch, & Blanc-Szanton, 1994, p. 8).

يصطدم هذا الحضور المزدوج لدى المهاجرين باتجاهات نفسية واجتماعية محملة بالتحيز والعنصرية داخل مجتمعات الاستقرار. حيث ينظر إلى هويتهم المركبة باعتبارها تهديدا للانسجام الثقافي أو السيادة الوطنية. إن رفض اليمين المتطرف للآخر المختلف سيكولوجيا وهوياتيا، يترجم الخوف البنيوي من خلخلة الحدود التقليدية للمواطنة، مما يحول الاتجاهات العنصرية من مجرد أحكام قيمية فردية إلى آليات إقصائية ممارسة مؤسساتيا، تهدد المهاجرين بالوقوع في منزلق الانكفاء على الذات، وهو ما يعقد من شروط اندماجهم السوسيو-ثقافي والسياسي في الفضاءات الجديدة.

IV. دور العوامل الاجتماعية: نموذج الشخصية التسلطية

تتدخل العوامل الاجتماعية بوصفها صانعا رئيسا للاتجاهات، ويبرز هذا الدور بوضوح عند تحليل نموذج "*الشخصية التسلطية* (*Authoritarian Personality*) ". فهذه الشخصية تتميز بجمود معرفي وتصلب ينزع نحو تبني المطلق، ومقاومة التغيير، وفرض الرأي، والتشبث بالأوهام حتى مع انكشاف زيفها. كما تتسم بالعدوانية، والتعالي، والنزوع الدائم نحو امتلاك القوة، مع الخضوع الأعمى للتقاليد والتقليل من فاعلية الإنسان وقدرته التاريخية.

وتتحول هذه السمات النفسية، بفعل *الانغلاق المعرفي* (*Cognitive Rigidity*)، إلى اتجاهات اجتماعية صلبة وغير قابلة للاختراق؛ فهي تحمل طابعا دوغمائيا يجنح نحو رفض الحقائق الموضوعية المهددة، مما يمنح الاتجاه التسلطي ديمومته ومقاومته الشديدة للتغيير.

إن تشكل هذه الاتجاهات التسلطية داخل البناء الاجتماعي يعزى إلى محددات سوسيولوجية واضحة يجملها إبراهيم (1985) فيما يلي:

1. **السخط الاجتماعي العام:** ينشأ نتيجة شعور الأفراد بأن المعايير السائدة والمنظومة القيمية المعتمدة لم تعد قادرة على تحقيق طموحاتهم، أو توفير الاستقرار والإشباع النفسي والاجتماعي لهم.
2. **ضعف السلطة أو فسادها:** يولد هذا الوضع ارتباكا مؤسساتيا يجعل الأفراد يتوقون للبحث عن بديل سلطوي حازم يضمن النظام.
3. **التنشئة الأسرية:** تساهم الأساليب الوالدية القائمة على القهر، والعقاب الصارم، والمطالبة بالانصياع التام في نقل السمات التسلطية للأبناء.
4. **الدور الوظيفي والموقع الجيلي والجندري:** تتدخل المواقع الاجتماعية في تحديد مستويات التسلط؛ حيث يميل المدرسون لإبداء تسلطية أكبر مقارنة بالتلاميذ، ويظهر المسنون ميلا محافظا وتصلبا أشد من الشباب، كما تبدي النساء في بعض السياقات — بفعل شروط المحافظة الاجتماعية — ميولا تسلطية تفوق تلك المرصودة لدى الذكور (ص ص. 235-237).

V. آليات تغيير الاتجاه وشروط الإقناع

يعد التساؤل عن كيفية تأثير الآخرين في اتجاهاتنا، والوقوف على مسببات الخضوع للضغوط الخارجية أو مقاومتها، واحدا من أكثر المباحث حيوية في علم النفس الاجتماعي (إبراهيم، 1985، ص. 239). والواقع أن البحث السوسيولوجي الحديث يفرض ربط هذا الانشغال الكلاسيكي بالبيئة الرقمية المعاصرة. فالمؤسسات التقليدية لم تعد تنفرد بصناعة المواقف، بل انتقلت هذه الدينامية إلى الخوارزميات الرقمية لشبكات التواصل الاجتماعي. إن آليات الإقناع المعاصرة باتت تدار عبر ما يعرف بـ*"غرف الصدى" والفقاعات المعرفية*. حيث يجري حصر المستخدم داخل بيئة افتراضية تعزز اتجاهاته القبلية وتدفعه نحو مسايرة القطيع الرقمي، مما يجعل من شروط المقاومة أو التعديل السلوكي مسألة بالغة التعقيد تتطلب وعيا رقميا نقديا. ولمقاربة هذه الدينامية، يمكن تحديد ثلاثة متغيرات مركزية تتحكم في قرار قبول الاتجاه الجديد أو رفضه وهي: محتوى الرسالة، ومصدرها، وطبيعة الذات المستقبلة.

أولا: مصدر الرسالة (آليات الإقناع)

يؤدي مصدر الرسالة دورا حاسما في توجيه التقبل أو النفور؛ فالرسالة الواحدة يتغير حجم تأثيرها بتغير قائلها وموقعه الرمزي. وفي هذا السياق، يتداخل عاملا الجاذبية والمصداقية تداخلا وثيقا:

- لا تعني الجاذبية بالضرورة كمال المظهر أو النجاح المطلق؛ بل تشير الدراسات التجريبية إلى أن جاذبية المصدر قد تزداد عندما يبدي بعض النقص أو يصدر عنه خطأ إنساني عفوي يخفض الكلفة النفسية للتفاعل.
- ترتبط الفعالية بمهارات المصدر الاجتماعية، وقدرته على ضبط حالته المزاجية، وإثارة حماس مستمعيه انفعاليا. ورغم أن التأثير يتطلب مهارة في إدارة انفعالات الجمهور، إلا أن الشرط الحاسم يظل كامنا في قدرة المتحدث على إثبات إخلاصه ونزاهته وإيمانه بالقضايا المشتركة.

- تتأسس المصداقية على الخبرة المعرفية، وتدعمها قدرة المتحدث على إبراز تضحياته الشخصية، والاستعانة بتقديم من شخصيات تحظى بالاحترام، مع تقليص الأساليب التحكمية المباشرة. كما تزداد فرص الإقناع بالبدء بنقاط التوافق التي يرغب الجمهور في سماعها أولا، والتحرك التدريجي نحو الفكرة الرئيسة لانتزاع انصياع مبدئي وتوظيف تأثير الجاذبية (إبراهيم، 1985، ص. 240).

ثانيا: خصائص ومحتوى الرسالة

يشترط في مضمون الرسالة الإقناعية أن يتسق مع مبادئ المنطق، وأن يكون قابلا للترجمة السلوكية والعملية، مع ضرورة صياغته بلغة مفهومة للمستهدفين. فضلا عن ذلك، فإن لطريقة تقديم الفكرة، واختيار التوقيت والمكان الملائمين، أثرا يتجاوز أحيانا القيمة المعرفية المجردة للمحتوى.

ثالثاً: خصائص المستقبل

لا يواجه الخطاب الإقناعي وعاء فارغا، بل يصطدم ببنية نفسية واجتماعية للمستقبلين؛ فالخطاب الموجه لتحرير المرأة — على سبيل المثال — سينتج أثرا مختلفا تماما إذا ألقي على مجموعة نسوية تؤمن بالفكرة مقارنة بتقديمه لداخل جماعة تقليدية أو دينية في فضاء محافظ. وتتحكم في استجابة الجمهور محددات بنيوية منها:

- **الهشاشة النفسية:** الأفراد الذين يعانون من إحساس بالنقص، وضعف الثقة بالذات، والعجز عن توكيدها، يبدون مرونة أعلى وسهولة واضحة في تعديل اتجاهاتهم.
- **قصور الاستيعاب:** عندما يعجز المستقبل عن فهم تفاصيل الموضوع المعقد، ينزع تلقائيا نحو الاقتناع برأي الطرف الذي يعتقد أنه يمتلك المعرفة والثقة.
- **مسايرة القطيع (الانصياع):** يميل بعض الأشخاص لتبني التغيير لمجرد أنه يمثل رأي الأغلبية السائدة، وهي ظاهرة سيكوسوسيولوجية تعكس الرغبة في التوافق الاجتماعي وتجنب العزلة.
- **الاتجاهات القبلية:** يسهم الاتجاه السابق للمستمع (المستقبل) في تحديد مدى تقبله للأفكار الجديدة؛ فالشخص الذي يحمل موقفا مسبقا متطرفا ومعارضا يكون تأثره بالرسالة الإقناعية محدودا وضيقا (إبراهيم، 1985، ص ص. 242-244).

تأسيسا على ما سبق، نقترح خطة إجرائية رباعية الأبعاد تروم إدارة آليات المواجهة وصناعة رأي عام نقدي ومستقل؛ وتتحدد معالم هذه الخطة في تضافر موجهات أربعة:

أولا: تعزيز الثقة بالذات وعقلنة التمثلات: بوصفها الركيزة السيكولوجية الأولى لتحرير الذوات المهمشة من استدماج الدونية والاستلاب.

ثانيا: تنمية ملكات الفهم والتحليل والمناقشة: عبر إرساء كفايات حِجاجية قادرة على تفكيك بنية الخطاب وتعرية آليات التوجيه والتحيز المسبق.

ثالثا: ترسيخ الاستقلالية والنزاهة الفكرية: لضمان تحصين الذات ضد الانسياق الأعمى وراء السلوكيات الجمعية التسلطية أو آليات العنف الرمزي.

رابعا: إعمال مبدأ الشك المنهجي بمعناه الديكارتي: بوصفه أداة إبستمولوجية وفلسفية لغربلة الآراء الجاهزة، والانتقال بالإنسان من الوثوقية الساذجة إلى فضاء الاعتراف والنقد الذاتي.

ويستلزم تنزيل هذه المحددات البنيوية توفر بيئة حاضنة وشبكة تفاعلية تلتحم فيها المؤسسات الاجتماعية والتربوية والسياسية. وهو التحام يسعى إلى تحويل هذه الموجهات النظرية من مجرد شعارات مجردة إلى ممارسات يومية داخل الفضاء العام، بما يضمن صياغة مواطنة نقدية ووعي تفاعلي عابر للحدود.

خاتمة

تأسيساً على ما سبق، يظهر أن الاتجاهات الاجتماعية تمثل بنى نفسية ومعرفية مكتسبة، تشكلها وتصوغها مؤسسات التنشئة الاجتماعية والسياسية والثقافية. فهي ليست مجرد مشاعر كامنة، بل هي محركات وموجهات أساسية تحدد مواقف الإنسان، وأفعاله، وردود أفعاله تجاه قضايا محيطه، لتتحول في نهاية المطاف إلى سلوكيات ظاهرة تتراوح بين الإيجابية والسلبية.

إن الاتجاهات تتدخل في تفاصيل حياتنا اليومية كافة، وما خياراتنا وسلوكياتنا إلا تمظهرات عملية لاتجاهات تشكلت، أو يعاد إنتاجها وصياغتها بمرور الوقت. ويظل التفاعل المستمر بين رصيدنا المعرفي وبين المنبهات الخارجية هو الكفيل بتحديد مدى تمسكنا باتجاهاتنا القديمة أو انخراطنا في بناء اتجاهات جديدة نحو الذات والمجتمع والعالم، بما نتميز به من وعي وحرية وإرادة وقدرة على التجاوز والتعالي عن الشروط الوجودية التي تشكل بنية العالم. فإلى أي حد يمكن اعتبار ظاهرة تحقق النبوءة ذاتيا عائقا بنيويا يحرم الفئات الهامشية من تحقيق الحركية الاجتماعية؟ وكيف تسهم الاتجاهات النفسية المحملة بالتحيز داخل مجتمعات الاستقرار في كبح ديناميات المواطنة العابرة للحدود ودفع المهاجر نحو الانكفاء الهوياتي؟ كيف يمكن للدرس الفلسفي، اليوم، بآلياته الحجاجية والنقدية، أن يسهم في تفكيك سمات الشخصية التسلطية داخل الفضاء التعليمي والاجتماعي والرقمي؟ وكيف يمكن تحصين الوعي البشري ضد آليات مسايرة القطيع في العصر الرقمي؟

المراجع:

أولا: المراجع العربية

1. **إبراهيم، عبد الستار.** (1985). *الإنسان وعلم النفس*. عالم المعرفة (86). المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
2. **كاستلز، مانويل.** (2017). *شبكات الغضب والأمل: الحركات الاجتماعية في عصر الإنترنت* (ترجمة هايدي عبد اللطيف). المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
3. **لامبرت، ويليم. و.، ولامبرت، وولاس. إ.** (1993). *علم النفس الاجتماعي* (ترجمة سلوى الملا). (ط. 2). دار الشروق.

ثانيا: المراجع الأجنبية

1. Environics Institute for Survey Research, Future Skills Centre, & Diversity Institute. (2026). Immigration and the economy: Experiences and perceived impact of immigrants. Toronto Metropolitan University.

2. **Glick Schiller, N., Basch, L., & Blanc-Szanton, C.** (1994). *Nations unbound: Transnational projects, postcolonial predicaments, and deterritorialized nation-states*. Gordon and Breach Publishers.
3. Piermattéo, A., Guegan, J., & Tavani, J. (2019). *Psychologie sociale*. De Boeck Supérieur.